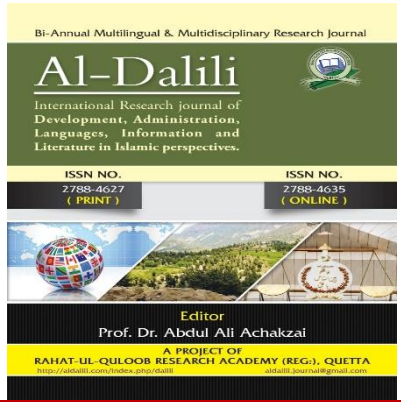

OPEN ACCESS

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License

AL DALILI

Bi-Annual, Multilingual (Arabic, Balochi, Brahui, English, Pashto, Persian, Urdu)
ISSN: 2788-4627 (Print), ISSN: 2788-4635 (online)
Project of **RAHATULQULOOB RESEARCH ACADEMY,**
Jamiat road, Khiljiabad, near Pak-Turk School, link Spini road, Quetta, Pakistan.
Website: www.aldalili.com
Approved by Higher Education Commission Pakistan
Indexing: » IRI (AIOU), Tahqeeqat, Euro pub, MIAR.

TOPIC

جبرا إبراهيم جبرا: حياته وأدبه – سفر وإبداع

Jabra Ibrahim Jabra: His Life and Literature – Travel and Creativity

AUTHORS

1. Rabia Omer Hayat, Assistant Professor, Govt: Jinnah Associate College (w), Mazang, Lahore, Pakistan. Email: rabiaomarhayat@gmail.com
2. Dr. Abul Wafa Mahmood, Professor ®, SZIC, Pakistan.

How to Cite: Rabia Omar Hayat, & Dr. Abul Wafa Mahmood. (2023). ARABIC: جبرا إبراهيم جبرا: حياته وأدبه – سفر وإبداع: Jabra Ibrahim Jabra: His Life and Literature - Travel and Creativity. *Al-Dalili*, *4*(2), 01–12. Retrieved from https://aldalili.com/index.php/dalili/article/view/89

URL: http://rahatulquloob.com/index.php/rahat/article/view/89
Vol. 4, No.2 || January–June 2023 || ARABIC-Page. 01-12
Published online: 07-02-2023

جبرا إبراهيم جبرا: حياته وأدبه—سفر وإبداع

Jabra Ibrahim Jabra: His Life and Literature – Travel and Creativity

رابعة عمر حيات [1] ابوالوفاء محمود [2]

ABSTRACT:
Life of the great Palestinian author Jabra Ibrahim Jabra, as is evident from his biographical works "Al-Bir Al-Oula – The First Well" and "Shri Al-Ameerat - The Princesses' Street", and the reflections of his writings especially his novels, and his literary dialogues and media talks with his contemporaries particularly Prof. Majid Saleh Al-Samerrai, proves that he had been raised by parents with meager resources who never compromised on his education and progression. It also indicates that he had been through various experiences associated with different streams of sentiments originating from his personal circumstances and perspectives of life, all these he had with such deep understanding and observation which resulted in his creative and expressive works of arts and literature.
Key words: Jabra Ibrahim Jabra, Palestinian author, arts and literature.

نشأ جبرا إبراهيم جبرا في أماكن مختلفة وتنفس في أجواء متعددة. التنقل والسفر لم يكن باختياره بل فرضته الحياة عليه بحثاً عن أسباب العيش والرزق. ويمكن تقسيم حياة جبرا إبراهيم جبرا إلى ثلاثة مراحل: حياته في فلسطين وحياته في بريطانيا وحياته في العراق، تخللت هذه المراحل رحلات أخرى سنُذكر تفاصيلها ضمن تفاصيل هذه المراحل.

1 حياته في فلسطين

ربما تعد هذه المرحلة هي الأكثر تأثيرا في تكوين شخصية جبرا وفي نتائجه القصصي والروائي. ولد جبرا إبراهيم جبرا في شهر آب من سنة 1920م في مدينة بيت لحم وترعرع بين جمال الطبيعة والمناخ والأماكن الأثرية المقدسة، غير أن أسرته لم تكن ميسورة الحال في يوم من الأيام بل كانت تعاني من فقر شديد والذي لازمها سنين طويلة[1]. وقد كان مصدر دخلها الوحيد ما يحصل عليه والد جبرا بعرق جبينه من العمل في الزراعة حيناً، وفي القيام على خدمة حدائق الأديرة حيناً آخر حيث كان يعمل بستانياً في دير راهبات المحبة في بيت لحم[2].

كان جبرا الثالث بين إخوته بعد مراد أخيه لأمه وشقيقه يوسف. ومن شدة الفقر اضطر الشقيق الأكبر يوسف إلى ترك المدرسة عندما كان في الصف الرابع الإبتدائي من أجل العمل وتحسين وضع الأسرة المالي، فعمل عند أحد النجارين أو الحدادين[3] مقابل قروش قليلة. و رغم قسوة الظروف، كانت عائله جبرا تشعر بالرضا والاستقرار بسبب

المحبة والتفاهم والانسجام بين أفرادها. يذكر جبرا في سيرته "البئر الأولى" العديد من الحوادث التي تؤيد هذه المحبة والاهتمام بالرغم من قساوة الحياة. فيذكر مرة أنه بقي في البيت ليراقب طبخ "الهيطليه" (أرز بالحليب)[4] الموعودة من أمه، وكانت أكلة لذيذة مفضلة لديه. يذكر جبرا تفاصيل إعداد أمه لهذه الطبخة، و لكنها عندما ذهبت مع جدته لاحضار الخضروات تاركة الهيطلية لتبرد، كان قد أحضر أصدقائه وصبيان الحارة إلى بيته وكانوا ستة أو سبعة فقضوا على تلك الطبخة. ولما عادت أمه، هرب مع أصدقائه خوفاً منها وظل يتجول في الحي ونواحيه إلى أن أنهكه التعب وأخذته الوحدة فعاد إلى البيت. يروي جبرا بجمال كيف ذاب الغضب في عيني أمه وتحول إلى ضحك وهي تقول له: "أتحسب أنك ابن سليمان جاسر؟ اشبع أولاً وبعدين أطعم الناس...". وبالرغم من تهديدها أنها لن تعطيه الأكلة بعد اعدادها لأبيه وشقيقه فإنه يلاقيها في المساء معتنية به كالعادة.[5]

ولما بلغ جبرا السادسة من عمره أخذته أمه إلى مدرسة السريان الكاثوليك في بيت لحم حيث كان يتعلم اللغة الإنجليزية والسريانية والحساب إلى غير ذلك من المواد. وكان خلاف أطفال عمره متفوقاً في دراسته. تعلم جبرا في هذه المدرسة كثيراً من التراتيل والأناشيد الدينية في الكنيسة المجاورة حيث كان يأخذه زملائه مع مدرسه الوحيد في المدرسة، وتعلَّم هناك أيضاً العزف على بعض الآلات الموسيقية فبدأت صلته الأولى بالعزف الموسيقي.[6]

بعد إنهاء الصف الثالث الإبتدائي في هذه المدرسة، نقل إلى المدرسة الوطنية حيث كانت النخبة الممتازة من المعلمين أمثال جبور عبود[7] وقضى فيها جبرا عامين كاملين وأظهر تفوقاً ملموساً بين أترابه. لكن سوء الحظ لم يفارق الأسرة فما كاد أن ينهي الصف الخامس الإبتدائي حتى أصاب والده المرض واضطر إلى لزوم الفراش طيلة السنوات التالية حتى وفاته عام 1946م. وقد أشار جبرا إلى مرض أبيه وعجزه عن العمل: "ترك أبي العمل فقد بات لا يعاني من آلام ساقه اليسرى فقط، بل غدا لا يستطيع السيطرة على حركتها إلا بمشقة، وجعلت يده اليسرى ترجف ولا يستطيع وقف رجفتها".[8]

وبوفاة الوالد انتهى آخر مصدر دخل كانت تعول عليه الأسرة فاضطرت بعد ذلك للانتقال إلى مدينة القدس وهناك سكنت غرفة واحدة في أحد الأحياء الشعبية وهو "جورة العَنَّاب". وفي تلك الغرفة الصغيرة كان جبرا يدرس ويحضر واجباته المدرسية على ضوء المصباح الذابل وأنين الوالد القاعد. ورغم ظروف الأسرة المادية القاسية فقد أصرت والدة جبرا على استمراره في الدراسة فأخذته إلى المدرسة الرشيدية في القدس وكان ذلك عام 1932م.[9]

وفي هذه المدرسه أتيح لجبران أن يتتلمذ على يد نخبه ممتازه من المعلمين، منهم الأستاذ إسحاق موسى الحسيني الذي قال عنه جبران بنفسه أنه علَّمَه وزُمَلاءه طريقة تتبع الصورة الشعرية في مجمل أبيات القصيدة وليس في كل بيت على حدة. وقال أنه مازال متأثراً بتلك الطريقه طوال حياته[10]. أمضى جبرا ثلاث سنوات في هذه المدرسة

وكان لأساتذتها دورٌ كبيرٌ في نشأة مواهبه الأدبية وتَنميتِهَا. وفي تلك المدرسة عادة يُسمَحُ لمن يرغب من الطلاب المسيحيين الحضور في حصص القرآن الكريم والتربية الإسلامية، على أن يجرى لهم في نهاية السنة اختبار في معاني مفردات القرآن الكريم. وكان جبرا ممن حضرو تلك الدروس وتقدموا لاختبارها أيضاً.[11] ومن الممكن أن تكون تلك الدروس أحد أسباب إسلامه فيما بعد.

أما أحب المعلمين إليه فقد كان جمال بدران معلم الرسم والذي علَّمَه أصول الرسم، خاصةً قواعد المنظور والتظليل، ما بقي دليلاً في دراساته وأعماله الفنية طيلة حياته.[12] وعلى يده تعلم أيضاً الزخرفة الإسلامية حيث أتيح له بفضل هذا الاستاذ الذهاب إلى حرم المسجد الأقصى لنقل أجزاء من زخارف جدران قبة الصخرة وإعادة رسمها وإكمالها في دفاتره بالخطوط والألوان. وكان زميله في هذا الدور وصديقه شريف الخضرا الذي تخصص فيما بعد في الصناعات الزخرفية في أحد معاهد القاهرة الفنية.[13]

وبعد إنهاء جبرا للصف الثاني الثانوي[14] من المدرسة الرشيدية عام 1935م، نقل إلى الكلية العربية ولم يستطع البقاء بها حيث انفجر اضطراب 1936م، فأغلقت الكلية حتى شهر شباط 1937م، حيث استؤنفت الدراسة من جديد. وفي الكلية العربية أتيح له الحصول على العناية من قبل أساتذة ممتازين جعلوه مسؤولاً عن نشاطات مكتبة الكلية فكانت تلك فرصة طيبة لجبرا للتعرف على كثير من الكتب والمؤلفات الجديرة بالاهتمام والقراءة. ورغم أن النظام الداخلي لهذه الكلية كان يمنع الطلبة من القراءة والمطالعة في أوقات الليل المتأخرة حيث كان يفرض عليهم النوم المبكر لكي يتمكنوا من النهوض في الساعة السادسة من الصباح التالي. لكن جبرا وبعض الطلبة المجتهدين كانوا يحتالون على هذه التعليمات بطرق طريفة ومضحكة منها القراءة على ضوء مصباح البطارية تحت غطاء السرير أو في الحمام.[15]

كانت تلك الكلية ترسل كل عام طالباً أو طالبين من الخريجين المتفوقين في بعثات دراسية إلى بريطانيا أو الجامعة الأمريكية في بيروت، ولذلك رُشِّح جبرا لبعثة دراسية إلى بريطانيا لدراسة الأدب الإنجليزي بعد تخرجه بتفوق غير أنه رفض البعثة وطلب أن يُعيَّن معلِّماً ليتمكن من إعالة أسرته المعدمة، لكن مدير المعارف اقترح عليه أن يعود إلى الكلية العربية لدراسة أساليب التدريس والمسلكيات لمدة سنة وبعدها يتعين براتب أفضل. فعاد جبرا إلى الكلية العربية وقضى سنة أخرى والتي كانت سبباً في مطالعة كتب قيمة أخرى. وبعد تلك السنة لم توافق إدارة المعارف من جديد على تعيينه معلِّماً بل أصرَّت على إرساله إلى بريطانيا لإكمال دراسته فوافق. لكن ظهر مرض التراخوما في عينيه[16] نتيجة الفحص الطبي قبل السفر. فرح جبرا بهذه النتيجة إذ لم يعد أمام إدارة المعارف إلا تعيينه معلِّماً كما يريد، وأخيراً كان له ما أراد، حيث عُيِّن معلِّماً في المدرسة العمرية حيث مكث شهراً ثم نقل إلى مدرسة إبتدائية أخرى وهي المدرسة البكرية التي كانت مأوىً للطلاب المشاكسين والكسالى.[17] ومرت سنة بين التدريس في تلك المدرسة ومعالجة العينين

والتردد على إحدى الجمعيات الخيرية "جمعية الشبان المسيحيين في القدس".[18]

وهكذا تحسنت ظروف الأسرة المالية ولو بشكل بسيط، فاشترى جبرا بعض الآلآت الموسيقية وأخذ يعزف عليها، كما استطاع الحصول على مؤلفات شيلي وكيتس ويعكف على قراءتها بشغف. ولعله وجد في رومانسية هذين الشاعرين صورة قريبة لآمه وبؤسه ومعاناة أسرته. وبعد نهايه تلك السنه شفيت عيناه من المرض وهكذا تقَدَّر بشكل نهائي بعثه إلى بريطانيا. عارضت أمه معارضة شديدة بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية لكن جبرا لم يستطع مطاوعتها وتوجه إلى بريطانيا عام 1939م. وعاد بعد قضاء أربع سنوات وتم تعيينه مدرساً للأدب الإنجليزي في الكلية الرشيدية التي كانت مدرسة ثانوية عندما كان طالباً فيها. وفي هذه الكلية كان له ما أراد من وفرة القراءة والأدب والرسم والموسيقى، وأثناء تواجده بها كتب روايتين بالإنجليزية هما: "الصَّدى والغدير"[19] و"صراخ في ليل طويل"، كما كتب عدداً من القصائد باللغة الإنجليزية ونشرها في إحدى المجلات في لندن.[20]

ولم تكن نشاطات جبرا الثقافية محدودة داخل الكلية أثناء وجوده فيها بل امتدت إلى خارجها فأنشأ نادي الفنون في القدس ومن خلال كان يلتقي بمجموعة من الشباب ويلقي عليهم محاضرات في الأدب والموسيقى والرسم.

وبعد مضي أربع سنوات تحسنت أحوال الأسرة المادية تماماً وانتقلت من ذلك الحي الشعبي إلى منطقة القطمون. وما كادت أن تستقر الأسرة في سكنها الجديد حتى بدأت المناوشات والمعارك الجانبية تندلع بين العرب واليهود، وكان ذلك بعد اصدار قرار التقسيم الجائر عام 1947 م. فاضطر العرب إلى ترك مساكنهم في منطقة القطمون والرحيل إلى أماكن بعيدة، وهكذا فعلت أسرة جبرا وعادت لتسكن في بيت لحم من جديد. وكان جبرا يسافر يومياً من بيت لحم إلى القدس ليقوم بعمله في الكلية الرشيدية ولم تكن تلك الرحلة اليومية مأمونة حتى أن السيارة التي كانت تنقل جبرا تعرضت للهجوم من قبل عصابات العدو.[21]

واستمر هذا الحال حتى اندلاع حرب 1948م وحلول النكبة وضياع الوطن. عاش جبرا أحداث النكبة ومصائبها وشارك في المسيرات والمظاهرات التي قام بها الفلسطينيون احتجاجاً على ضياع وطنهم.

وبعد أن قضت الحرب على الأخضر واليابس، وبعد أن عادت أسرة جبرا إلى حالة الفقر من جديد، فكَّر جبرا بالهجرة إلى إحدى البلدان العربية بحثاً عن الرزق فتوجه إلى بيروت أملاً في الحصول على وظيفة في الجامعة الأمريكية ببيروت لكن الحظ لم يحالفه، وكذلك كان الحال عندما توجه إلى سوريا، فعرض عليه أحد معارفه أن يسافر إلى بغداد فلم يوافق باديء الأمر لقسوة مناخها. لكن قسوة ظروف الأسرة أجبرته على الموافقة واستطاع بمساعدة أحد الأساتذة العراقيين[22] أن يجد عملاً في أحد المعاهد العلمية ولا سِيَّما أنه كان قد حصل على درجة الماجستير في تلك الفترة من جامعة كامبردج. وفي يوم 30 أيلول 1948م توجه إلى العراق وهنا تنتهي الفترة الأولى من حياته.

من بين الآلآم التي عانها جبرا خلال فترة قيامه في فلسطين ألم وفاة أخته الوحيدة سوسن، وهي في التاسعة من عمرها، وقد وصف هذا الحدث بالحزن المدمِّر الذي فاجأه وأهله في عام 1938م.

2 حياته في بريطانيا

تبدأ هذه المرحلة من عام 1939م وتنتهي في عام 1943م، وبالرغم من قصر هذه الفترة نسبياً مقارنة بالمراحل الأخرى من حياة جبرا إبراهيم جبرا إلا أنها تركت آثاراً واضحة وقوية في تكوينه الثقافي والأدبي.

يقول جبرا عن رحلته إلى بريطانيا أنها كانت أول مرة يخرج فيها من بلده إلى آفاق العالم العريضة مليئاً بالحماس لكل ما يثير في العين والذهن.[23]

التحق جبرا بجامعة اكستر بجنوب انجلترا في العام الأول من قيامه هناك، وكان التحاقه بجامعة اكستر بهدف الاستعداد للدخول إلى جامعة كامبرج في السنة التالية للتخصص في الأدب الإنجليزي.

مدينة اكستر من أجمل المدن البريطانية التي أعجبت جبرا لجمعها بين مباهج الحياة الطبيعة بأنواعها، إضافة إلى عراقتها التاريخية. يقول جبرا في الأشهر التسعة الأولى من حياته هناك وقبل أن يكمل العشرين من عمره، كانت المدينة مسرحاً لانطلاقاته الذهنية والحسية. حيث بدأ فيها باشتراء الكتب كادٍ يومياً وبالجملة حيث تعرف هناك على شيخ رصين الكلام والحركة كان يعشق الكتب مثله، يعمل في مكتبة رئيسية مسؤولاً عن الكتب المستعملة التي كان يشتريها في مجاميع كبيرة تعود إلى أناس جمعوها ذات يوم بحب وعناية ولكن الورثاء من بعدهم راحوا يبيعونها بأبخس الأثمان. فكان يتعامل بجود مع جبرا ولا سيما أنه بدا مثله عاشقاً للكتب حتى ملمسها ورائحتها والحديث المسترسل عنها[24]

أثناء استعداده لجامعة كامبرج ركَّز على الشعراء ولا سيما المحدثين، بالإضافة إلى شاعريه المفضلين شلي وكيتس. مع أنه اهتم كثيراً بالروائيين فزاد تعمقاً وفهماً للصورة المجازية والكناية والرمز في مجال كان قد ملك على نفسه منذ أيام الدراسة في الكلية العربية.[25]

قال جفري وولتن أحد أساتذته أنه "واسع الاطلاع جداً" بالنسبة لمن هُمُ في سنِّي ، فأدهش جبرا قول أستاذه هذا وهو كان قد اعتاد على المطالعة المستمرة والمتنوعة كضرورة من ضروريات الحياة اليومية. وفي جامعة كامبرج تتلمذ جبرا على يد عدد من الأساتذة الممتازين أمثال ف.ر. ليفس F. R. Leavis وجورج رايلند George Rylands وجون بينيت Joan Bennett وإ. م. و. تيليارد E. M. W. Tillyard وهيلين داربيشر Helen Derbyshire ووليم تاتشر William Thatcher، ذكر جبرا هذه الأسماء بنفسه في مقابلاته الشخصية مع الأستاذ علي أحمد الفزاء.[26]

تخرَّج من الجامعة عام 1943م، وكان من بين الخمسة الأوائل المتفوقين على دفعة قاربت خمسين طالباً. لم يكن حصاده علماً ودرجة تخرج فحسب بل تعرَّف أثناء قيامه في بريطانيا على المجتمع البريطاني وما يسوده من علاقات

وقيم. مرَّ بتجارب متنوعة سواءً كانت ذاتية عاطفية أو أدبية ثقافية زادت شخصيته عمقاً وفهماً للحياة والأدب.

أفرد جبرا "فصلاً كاملاً" باسْمِ سيدالبحيرات في كتابه "شارع الأميرات" حول زيارته لقرية شاعرالحركة الرومانسية الكبير وليام وردزورث، وتحدث في هذا الفصل عن إعجابه بشعراء هذه الحركة من أيام الكلية العربية أي من قبل مجيئه إلى بريطانيا. تذكَّر جبرا أثناء قيامه في تلك القرية تجاربه الأولى مع الطبيعة في طفولته الناضجة في وطنه فلسطين.

كان لقيام جبرا في بريطانيا دورٌ كبيرٌ في صقل حِسّه الأدبي والثقافي، كما ساهم في تنمية شخصيته الحساسة للطبيعة وللمشاعر الإنسانية. فقد مرَّ ببعض التجارب العاطفية أيضاً أثناء قيامه هناك. وليس من المبالغة في القول أن تجارب كهذه إنما تزيد الأديب والموسيقيّ والشاعر إحساساً وعمقاً وفهماً ورقَّة.

3 حياته في بغداد

بدأت هذه المرحلة بوصوله إلى بغداد في أواخر عام 1948م وحتى وفاته عام 1996م. كان للأستاذ عبد العزيز الدوري دور مهم في إقناع جبرا إبراهيم جبرا على الذهاب إلى العراق وفيها بالخصوص إلى بغداد.

عمل جبرا أستاذاً للأدب الإنجليزي في كلية جيدة المستوى والتي أصبحت فيما بعد كلية الآداب في جامعة بغداد. سكن في البداية مع الطلبة في سكنهم في إحدى مباني الكلية، ولكنه انتقل ليعيش في مساحته الخاصة حيث استأجر غرفةً من فندق بغداد ثم غادرها إلى أخرى من فندق السندباد حيث عاش حتى زواجه.[27] كان يلقي دروسه ومحاضراته في كلية الآداب وفي دار المعلمين العالية وفي كلية الملكة عالية للبنات يتنقل بينها على عربة يجرُّها حصانان.

وفي جميع هذه الكليات كان يساهم في نشاطات الطلبة ومنها: إنشاء جمعية للمناظرات باللغة العربية وأحياناً باللغة الإنجليزية، وجمعية للموسيقى وجمعية للمسرح والتمثيل، أي أنه تعهد بنشاطات الطلبة الثقافية والأدبية والفنية. كان يحرص على استضافة مثقفي المدينة وطلاب الكليات الأخرى وأساتذتها للاستفادة والتبادل. تعهَّد المواهب التي آنَسَها في طلابه بالرعاية والتوجيه، وما لبث أن تعرف على مجموعة من الكتاب والأدباء العراقيين الشباب كان من بينهم بلند الحيدري وعدنان رؤوف وحسين مردان وحلمي سمارة وجواد سليم ودزموند ستيوارت وخالد الرَّحَّال ونزار سليم وعبد الملك نوري ونجيب المانع وزهدي جار الله ويوسف عبد المسيح ثروت وغيرهم.[28]

لم يكتفِ جبرا بالتعليم، بل لم ينقطع هو نفسه عن الكتابة والرسم، فأخذت قصائده ومقالاته تملأ الصحف والمجلات وبدأت مؤلفاته تصدر الواحدة تلو الأخرى ولمع اسمه في الوطن العربي كشاعر وناقد وقاص ومترجم ورسَّام. وفي عام 1951م اشترك مع الفنان جواد سليم[29] في تأسيس جماعة بغداد للفن الحديث التي كانت من أهم فعالياتها إقامة معرض كل سنة تُقدَّم للناس فيه ما أنتجه أعضاؤها من لوحات وتماثيل. وكان جبرا يساهم في تلك المعارض السنوية إلى أن انقطع عن الرسم عام 1968م.

أما زوجته لميعة العسكري فقد تعرف عليها أيضاً في نفس العام أي عام 1951م، وكانت تدرس آنذاك في دار المعلمين. عندما تعرف عليها لم تكن الوحيدة التي أَشْغَلت قلبه شغفاً ومحبةً، مع أن هذا الجانب شخصي بحت لكنه كان جزءاً مستقلاً مداوماً من شخصية جبرا وهو تعلقه المتعدد بالصنف الناعم من حوله. وقد يكون القلب متعلقاً بأكثر من واحدة إلى أن انتهى هذا التنوع حين أسلم قلبه وحياته ومستقبله بشكل نهائي للسيدة لميعة العسكري. فبعد علاقة صداقة ومودة دامت عاماً كاملاً أي في عام 1952 م، قبل جبرا إسلامه أولاً على يد القاضي عبد الحميد الأتروشي[30] ثم تزوج بالسيدة لميعة العسكري أمامه مقابل مهر ضئيل جداً حيث كان المقدم دينار واحد والمؤخر ديناران. وكان تعليقه على زواجهما "أشهد بالله أن هذا الزواج ليس الدافع إليه هو المال".[31] أما السبب الحقيقي والأساسي لقبول جبرا الإسلام وتخليه عن المسيحية فيبدوا باقتناعه أن السيدة لميعة كانت القرار الأخير للاستقرار في الحياة، أي أنه أسلم من أجل أن يتمكن من الزواج بها. وذهب البعض أن تركه للمسيحية هو ترك وتخلي أوروبا المسيحية عن نصرة القدس أمام الصهاينة ولشعوره بأن مسيحيي أوروبا ينظرون إلى مسيحيي آسيا وأفريقيا نظرة احتقار وازدراء،[32] وبالتالي كان اعتناق المسيحية وسط عالم إسلامي أمر لا فائدة منه.

"فاستدار ورفع ذراعيه بحركة باذخة وهب نحوي بعباءته التي طارت حوله كجناحين عظيمين، وأخذني بين ذراعيه وقبَّل خدي: قل لها إنني أحبها، فالفتاة التي تفكر في قتلي لا بد أنها أعظم جائزة في البلاد، تخلَّ عن دينك يا جميل وتزوجها".[33] يتضح من الكلمات السابقة التي قالها جبرا على لسان أحد شخصيات روايته أنه كان مستعداً في أي لحظة أن يتخلَّى عن المسيحية.

وقد سبق الذكر بأن جبرا كان يحضر دروس القرآن، والتربية الإسلامية حين كان طالباً في المدرسة الرشيدية في القدس، وليس من البعد أن تكون تلك الدروس مقدمة جيدة لتعرف جبرا بالإسلام ونشوء شيء من الألفة والأنس بينه وبين عقيدة الإسلام.

أما إلى أي مدى استطاع جبرا التخلص من آثار تربيته المسيحية وإلى أي مدى استطاع أن يتعمق في الإسلام، فهذا شيء يجب ألا يتوقع أصلاً. فمن المستحيل أصلاً أن يتخلى الإنسان بين يوم وليلة عن عقيدة نشأ وتربى عليها وأصبحت جزءاً رئيسياً من بنيانه النفسي والروحي والعقلي.

قدَّم جبرا للزمالة الدراسية بجامعة هارفرد بمساعدة صديق له اسمه جون مارشل،[34] بعد أن قرر "مجلس التعليم العالي" إلغاء عقود الكثير من الأساتذة وكان هو واحد منهم.[35] وقد تزامن مع الوقت الذي كان فيه يخطط جبرا الزواج بلميعة والاستقرار لكنه لم يستسلم فقدم للزمالة التي قبلتها الجامعة فتزوج من الإمرأة التي يحبها وأخذها معه إلى الولايات المتحدة الأمريكية وقضى هناك عاماً ونصف، أضاف ذلك القيام عمقاً وفهماً وحسّاً.

رجع إلى بغداد وقضى سنيناً حافلة بالعمل والحياة متنوعة المناصب في كلية الآداب بجامعة بغداد وفي عدد من المعاهد العالية الأخرى، بالإضافة إلى عمله في شركة نفط العراق وشركة النقل الوطنية حيث قضى قرابة خمس سنوات رئيساً لمكتب الإعلام والنشر في تلك الشركة، كما عمل خبيراً في وزارة الإعلام والنشر العراقية.[36]

يقول جبرا: "كانت الكتابة، مع الرسم أحياناً ضرورية ضرورة الحب، ضرورة الصداقات، ضرورة الماء والخبز، وهذا كله كانت لميعة تعرفه، وتحرص عليه، وراحت دون أن تتحدث فيه توفر جَوَّهُ لي، بتلقائية وذوق مع كثير من التضحية".[37]

كان جبرا متعدد المواهب، واسع الاطلاع، مرهف الحس، خفيف الظل، رقيق الجانب، متواضعاً طيلة سنوات قيامه في بغداد أو بالأحرى طيلة باقي حياته استمر على الكتابة والتأليف، غير أنه بعد عودته من زمالة هارفارد ذاع صيته فكان يكتب في العديد من المجلات والصحف ويساهم في تحريرها.[38] ترك جبرا كنزاً كبيراً من الكتب والمترجمات والروايات والقصص والدواوين الشعرية، حصرها وعدُّها ليس من المهم في هذه الدراسة فالوصول إلى قائمة مؤلفات أي أديب أو ناقد أو شاعر بات أمراً صغيراً جداً في العصر الحاضر ولا سيما لشخصية كجبرا الذي ترك بصمات واضحة في كل المجالات بل كان له السبق في كثير منها. أما ما هو مهم لهذه الدراسة فهما أمران:

الأمر الأول: أن جبرا عاش في بيئات متعددة ومتنوعة فمن طبيعة الحياة في القدس وما صاحبها من ألم ومعاناة وفقر متلازم داخل بيته، ومن أحداث هزت كيانه وكيان كل فلسطيني أبَّان النكبة، إلى بيئة بريطانيا بكل معطياتها المتنوعة والجميلة في سنوات الحرب العالمية الثانية، إلى بيئة العراق بما زخرت به من أحداث وتيارات سياسية وفكرية. ويضاف إلى قيامه رحلتان مهمتان تم ذكر أحدهما وهي رحلته إلى هارفارد. أما الرحلة الثانية فكانت مقصورة على ثلاثة أشهر من صيف العام السابق لزواجه من لميعة إلى باريس، قال جبرا عنها: "لا أحسب أنني عرفت نشاطاً مكتظاً في حياتي كالذي عرفته في تلك الأشهر الثلاثة في باريس، كنت في حركة دائبة، ألعب دور المتلقي الذي أصابه النهم بعد سنوات جوع ثقافي منذ مغادرتي كامبردج".[39]

انعكس هذا التنوع في البيئات وفي التجربة الحياتية لجبرا بوضوح على شخصيته وتكوينه الثقافي. فقد كان متنوعاً في مواهبه وأعماله، وانشغاله بالبحث والتدريس لم يوقفه عن عطائه كشاعر وكاتب قصة ورواية وناقد ورسَّام ومُوسيقيّ ومترجم. والتجارب التي عاشها في تلك البيئات المختلفة متداخلة ومتمازجة لتُكَوِّن إنساناً موهوباً ويداً متعددة المواهب جميلة الإبداء.

الأمر الثاني: بالرغم من تنوع بيئات ومصادر جبرا إلا أنه لم يلتزم بفكر معين أو تيار فكري أو سياسي مُعيَّن سوى حبه للقدس وإيمانه الراسخ بأنها عائدة لأهلها. أما إلى غير ذلك من التيارات الفكرية والسياسية التي سادت البلاد

العربية سواءً كانت من طبيعة أحداث الأمة العربية، أي ما تعيشها البلاد العربية من أحداث داخلية أو ما كان وافداً عليها من الغرب ولا سيما تيارات ما بعد الحرب العالمية الثانية وما بعد النكبة. إلا أن جبرا إبراهيم جبرا وقف محايداً عن كل تلك التيارات الفكرية والسياسية وكان تركيزه على الحياة والإبداء. "ساوى هذا المثقف الفلسطيني النوعي بين الثقافة والحقيقة".[40]

سيرة جبرا كغيره من الفلسطينيين المبدعين تعكس الحقيقة المريرة بأن الوطن هو اسم لمنزل واحد ولمكان واحد وما غير ذلك مهما كان مريحاً ومهما كان بعيداً لا يعطي المرء الشعور الكامل بالانتماء. فالحُرقة لألم الوطن وخاصةً القدس لا تفارق جبرا في كتاباته أيضاً. وبقدر ما كان جبرا يفاجيء القاريء بإيمانية راسخة إلى تخوم التصوف، يخبره بأن القدس عائدة إلى أهلها في النهاية، فقد كان حداثياً في منظوره للقومية والمجتمع والثقافة العالمية.[41]

قد يكون جبرا من الذين فقدوا طعم الإنتماء الكامل دائماً وربما لهذا السبب صرف نفسه لاستيعاب كل ما هو جديد واتقان كل ما هو ممكن ليُكوِّن لنفسه قيمة عالية. وجعل همَّه الأعلى وكرَّس جهوده وفقه بأن يكون مقبولاً وناجحاً كتلميذ وباحثٍ باديء الأمر ثم ككاتب ومُفكِّر ومُعلِّم بقية حياته خاصة في بغداد حيث استقر إلى مماته. ولهذا فالقالب الغالب على أدب جبرا هو القالب الإنساني الجمالي والقضية بالنسبة له هي قضية الإنسان بغض النظر عن جنسه أو زمانه أو مكانه، "ونرى فيه فلسطينياً مجتهداً يرسم وينحت ويلقي المحاضرات ويتقن العربية ولغة شكسبير وينظر طويلاً إلى السماء موحداً بين المعرفة والإيمان".[42]

سأله الأستاذ ماجد صالح السامرائي في سؤال طويل عن "رحلة العمر" و"سنوات التكوين"[43] فأجاب: "كنت، وما أزال، ذلك المندهش، الذي يحيا بالدهشة، ويبحث دوماً عن أسبابها طلباً للمزيد من الدهشة: الدهشة بالدنيا، بالله، بالناس، بالمدن، بالأرياف، بما تراه العين، وبما لا تراه العين. وعندما لا أندهش، أحسُّ أنَّ خطأً ما قد وقع فيَّ أنا أو في الناس أو في الأشياء، وأبحث مجدداً عن السبب. ولهذا كان عليَّ أكتب، وكان عليَّ أن أترجم، وكان عليَّ أن أرسم. كان عليَّ أن أخُوض بحاراً من الكلمات، بحاراً من الخطوط والألوان، وبحاراً من الأنغام لا تُخوم لها، وكان عليَّ أن أُكثر من السفر والترحال، وأُكثر الحديث والنقاش مع الناس من كل جنس ومن كل لون. أساتذة، وتلاميذ، زملاء، غرباء، خصوماً ومريدين، لكي أستمرَّ في هذه الدهشة".[44] ثم أضاف قائلاً "حياتي كانت كحياة أبناء جيلي، رحلةٌ إثرَ أُخرى من خلال الأزمان. فهي رحلات على مستويات مختلفة، ولو أن هذه المستويات تكون أحياناً سائرة آنيا في الإتجاه نفسه. وكان لا بد من إيجاد الوسيلة التي تُبقي على سلامة النفس، تُبقي على صحوة العقل، وتبقي على يقظة الحواس، وهي التي تُبقي على نبض الحياة الداخلية التي تتجوهر بها إنسانية المرء في بحثٍ ما، وفي تَوقٍ ما. وإذا كان لا بدَّ من أن أُلخِّص هذا كله، أقول: من المرارات المتعاقبة أردتُ استخلاص قطرتين من الحلاة، من البُؤس المتكرر أردتُ

الإنتهاء إلى وهجٍ يَعجز عن أن يَنال منهُ أيُّ بُؤس، في زمن مُهشَّم معذَّب أردتُ أن أتبيَّن جمالاً يَتخطَّى التهشّم والعذاب. وبقدر ما انخرطت في زمني كان همّي أن أنتزع منه ما يُنَمّي شجرة الأمل بأنّ الإنسان سيخرج من ذلك كله منتصراً لإنسانيته، ومُنتصراً لحبّه، وممتلئاً من نعمة الله وروعة الكون، ولن تنتهي دهشته، ولو أن بُؤسه أيضاً قد لا ينتهي".[45]

وفي الختام، يمكن القول بأن حياة جبرا إبراهيم جبرا كانت رحلة سفر واندهاش وإبداع فنيّ وأدبي دارت حول ثلاث محاور:

1. التحول من القديم إلى الجديد وما يعيشة المجتمع العربي من أجل هذا التجديد من صراع بين قيم الماضي وقيم العصر الحديث.
2. التركيز حول القضية الفلسطينية: سواءً كان تصوير ما عاناه الفلسطيني من ظلم وتشرد عن أرضه أو ما حاول ذلك الفلسطيني من تجسيد معاني البطولة والوطنية وذلك بعدم نسيانه لموطنه فلسطين رغم قهر الزمن والغربة.
3. الإنسان من حيث هو إنسان، بدون انتماء إلى زمان أو مكان، فقد حاول جبرا أن يُصور خلجات النفس الإنسانية بمشاعرها وأحاسيسها وكل ما يتناوبها من مخاوف وآمال وطموحات.

الهوامش

[1] معظم المعلومات عن حياة جبرا إبراهيم جبرا اعتمدت للحصول عليها من كتابيه البئر الأولى وشارع الأميرات وعلى رسالة علي أحمد الفزاع العواملة الأردني"جبرا إبراهيم جبرا ،دراسة في فنه القصصي" حيث نوه بأنه جمع هذه المعلومات من جبرا نفسه في مقابلات شخصية عديدة.

[2] "جبرا إبراهيم جبرا – دراسة في فنه القصصي" – أحمد الفزاع العواملة. كلية الآداب بالجامعة الأردنية.

[3] يوجد شبه كبير بين شخصية يعقوب في قصة الغراموفون وشقيق جبرا هذا.

[4] جبرا إبراهيم جبرا، البئر الأولى (فصول من سيرة ذاتية) – صفحة 18

[5] جبرا إبراهيم جبرا، البئر الأولى (فصول من سيرة ذاتية) – صفحة 20

[6] في هذه الكنيسة بدأت صلة جبرا بالموسيقى

[7] العواملة، "جبرا إبراهيم جبرا – دراسة في فنه القصصي" صفحة 10

[8] جبرا إبراهيم جبرا، البئر الأولى (فصول من سيرة ذاتية) – صفحة 157

[9] جبرا إبراهيم جبرا، البئر الأولى (فصول من سيرة ذاتية) – صفحة 18

[10] العواملة، "جبرا إبراهيم جبرا – دراسة في فنه القصصي" صفحة 10

[11] نفس المصدر – صفحة 11

[12] جبرا إبراهيم جبرا، البئر الأولى (فصول من سيرة ذاتية) – صفحة 189

[13] نفس المصدر – صفحة 189

[14] الثاني الثانوي في ذلك الوقت هو ما يسمى الآن الثاني الإعدادي

[15] جبرا إبراهيم جبرا، البئر الأولى (فصول من سيرة ذاتية) – صفحة 11

[16] العواملة، "جبرا إبراهيم جبرا – دراسة في فنه القصصي" صفحة 12

[17] العواملة، "جبرا إبراهيم جبرا – دراسة في فنه القصصي" صفحة 12

[18] العواملة، "جبرا إبراهيم جبرا – دراسة في فنه القصصي" صفحة 12

[19] رواية لم ينشرها جبرا إبراهيم جبرا

[20] مجلة Poetry of London

[21] صور جبرا إبراهيم جبرا هذه الحادثة بوضوح في روايته "السفينة" – صفحة 63

[22] الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدورة

[23] شارع الأميرات – جبرا إبراهيم جبرا, دار الأداب – بيروت، الطبعة الأولى 2007. ص 25

[24] شارع الأميرات – جبرا إبراهيم جبرا, دار الأداب – بيروت، الطبعة الأولى 2007. ص 39

[25] شارع الأميرات – جبرا إبراهيم جبرا, دار الأداب – بيروت، الطبعة الأولى 2007. ص 41

[26] جبرا إبراهيم جبرا – دراسة في فنه القصصي، علي أحمد الفزاع – جامعة الأردن 1982م. ص 16

[27] شارع الأميرات – جبرا إبراهيم جبرا, دار الأداب – بيروت، الطبعة الأولى 2007. ص 113

[28] شارع الأميرات – جبرا إبراهيم جبرا, دار الأداب – بيروت، الطبعة الأولى 2007. ص 113

[29] أستاذ النحت في معهد الفنون آنذاك وهو من أشهر الفنانين العراقيين وأحد مؤسسي "جمعية أصدقاء الفن"، ولد1919م وتوفي1961م

[30] قاضي بغداد الأول

[31] شارع الأميرات – جبرا إبراهيم جبرا, دار الأداب – بيروت، الطبعة الأولى 2007. ص 241

[32] جبرا إبراهيم جبرا – دراسة في فنه القصصي، علي أحمد الفزاع – جامعة الأردن 1982م. ص 18

[33] صيادون في شارع ضيق – جبرا إبراهيم جبرا, دار الأداب – بيروت. ص 28

[34] شارع الأميرات – جبرا إبراهيم جبرا, دار الأداب – بيروت، الطبعة الأولى 2007. ص 213

[35] شارع الأميرات – جبرا إبراهيم جبرا, دار الأداب – بيروت، الطبعة الأولى 2007. ص 222

[36] جبرا إبراهيم جبرا – دراسة في فنه القصصي، علي أحمد الفزاع – جامعة الأردن 1982م. ص 16

[37] شارع الأميرات – جبرا إبراهيم جبرا, دار الأداب – بيروت، الطبعة الأولى 2007. ص 266

[38] من أبرز هذه المجلات: "الأديب" و "الآداب" و "شعر" و "شؤون فلسطينية" و "الهلال" و "الدوحة" و "حوار" و "قضايا عربية". وقد كان عضواً في أسرة تحرير مجلة "أدب" اللبنانية.

[39] شارع الأميرات – جبرا إبراهيم جبرا, دار الأداب – بيروت، الطبعة الأولى 2007. ص 166-167

[40] جبرا إبراهيم جبرا، د. فيصل دراج. كتاب دبي الثقافية، دار الصدى، الطبعة الأولى 2015. ص 11

[41] المصدر السابق – ص 11

[42] المصدر السابق – ص 14

[43] الاكتشاف والدهشة،حوار في دوافع الإبداع مع جبرا إبراهيم جبرا، ماجد صالح السامرائي.دارأوما،بغداد، الطبعة الأولى2017،ص 42

[44] المصدر السابق – ص 43-44

[45] المصدر السابق – ص 43-44